

الجزائر العلمية وإسهامها في الحركة الفكرية بالمغرب

للفقيه
مصطفى المسلولي

اهتم المغاربة منذ أن منّ الله عليهم بالاسلام بنشر العلم والإنكباب على مجالسه، وكانت الحركة العلمية عندهم مرتبطة بالجمامع والكتاتيب ومنازل المدرسين، والتاريخ يحدّثنا عن عناية الملوك المغاربة بإنشاء المدارس ودور العلم في ربوع هذا البلد الأمين. فهذا الناصري يقول عن بعض أمراء بني مرين : «وبنى المدارس لطلبة العلم وأوقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم المرتبات»⁽¹⁾. وكذلك كان شأن باقي العائلات التي تسلسلت على حكم المغرب، فكثرت المدارس العلمية والزوايا والرباطات، ولا تزال هذه المدارس قائمة تشهد بعظمة هؤلاء الأسلاف.

أما مدرسو العلم فكانت كراسيهم العلمية لا تقل أهمية عن منصب الوزارة، لا يعين فيها إلا فطاحل العلماء. ولكل كرسي أوقافه وجراياته. وقد عرفت هذه الكراسي العلمية مع المرينيين لكنها ازدادت وتضاعفت أهميتها مع السعديين والعلويين وشارك في تأسيسها إلى جانب الملوك ورجال الدولة خاصة الناس وعامتهم. ومن بين تلك الكراسي المستحدثة في فاس أيام الوطاسيين والسعديين، كرسي البخاري بشرح فتح الباري وكرسي محصل المقاصد في التوحيد وكرسي الموطأ وعمدة الأحكام في الحديث⁽²⁾.

وللمغاربة في تدريس العلم ومناهجه وبرامجه ما يجعل فطاحل التربية الحديثة يقفون مندهشين ومتعجبين، كيف فطن هؤلاء الناس لهذه المسائل منذ قرون وهي تعتبر من أحدث ما وصل إليه الفكر التربوي ؟ وفي ذلك نأخذ مثلاً :

(1) الاستقصا، للناصري ج 65/3.

(2) «الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين» محمد حجي.

(1) المصطلحات الخاصة بالمدارس : فهناك المدرس والأستاذ؛ فالمدرس فقيه مسؤول عن تدريس العلوم الفقهية وما يتصل بها من أصول وتفسير، والأستاذ تدل على النحوي أو اللغوي. وكان لكل فرع من العلوم رئيس يحتل منصب الصدارة بين مدرسيه في المدرسة، فلا عجب أن نجد في نصوص بعض الفقهاء مثلاً «إن الفقيه محمد بن فتوح قد عرضت عليه رئاسة الفقه بمدرسة العطارين». وهذا ما يسمى في عصرنا الحاضر رئيس الشعبة أو القسم.

(2) إن البرامج كانت تختلف في الصيف عنه في الشتاء. ففي الشتاء كانت تدرس بالمدارس العلمية التفسير والحديث والفقه والأصول، وفي فصل الصيف كانت تدرس العربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة، أما يوم الخميس ويوم الجمعة فكانا مخصصين لدرس التصوف⁽³⁾.

وهذا نظام بديع يلمح تعدد واختلاف العلوم من نقلية وعقلية وبرمجتها بصورة تتلاءم مع مقدرة الطالب واستيعابه، فالطالب يكون أكثر حيوية في فصل الشتاء، لذلك روعي فيه تقديم المسائل الفقهية وأخرت العلوم الإلهية الأخرى إلى الصيف، وأدرج التصوف مع المناهج لإصلاح القلوب وتعهدها بالمواعظ والنصح على عادة سلفنا الصالح.

كما اشتهر المغاربة ببعض التقاليد الجامعية التي لا يشاركون فيها غيرهم وقد أضفت الأجيال على هذه التقاليد صفة القداسة لتصير طقوساً مرعية لا تقبل المخالفة كأيام العمل والعطل، ولهم عوائد في ختماتهم للعلوم وتكريم الناهيين منهم، ولهم نزوات ومجالس في الجنان والرياض والبساتين، ولو رحنا نستقتصي هذه التقاليد العلمية لضائق بنا هذه الصفحات ولخرجنا عن المقصود.

وأما الإجازات العلمية في المغرب — وهي بيت القصيد — فهي جزء لا يتجزأ من هذه الحركة العلمية المباركة تدل على مكانتهم العلمية، وما هو موجود ومحفوظ منها في الخزانات العامة والخاصة يشهد بعظمة المغاربة وكيف رحلوا إلى أقاصي البلاد طلباً للعلم وبحثاً عن أسبابه ويشهد كذلك بعلو همتهم وعن الوفرة الوافرة من العلوم التي سمعوها ورووها.

وتنقسم عندهم — أي المغاربة — الإجازات إلى عدة أقسام سنفصل القول فيها بعد قليل بحول الله تعالى. فإذا أجلنا النظر فيها يتبين قصب سبقهم في هذا المجال،

(3) نبذة عن المدرسة في المغرب في ضوء المعيار للنوشرسي، بقلم داود القاضي، مجلة الفكر العربي... العدد 21.

فالإجازة العلمية لا تعطى إلا للطالب الملازم لشيخه بعد تحصيل العلم والتمرس بفنونه، وهناك الإجازات التقديرية يتبادلها العلماء بينهم، وهناك الإجازة التكريمية وهي التي تمنح للملوك وكبار رجال الدولة من طرف العلماء، وهي أشبه بهذه الدكتوراه أو الشواهد الفخرية التي تمنح من قبل الجامعات العريقة في الشرق والغرب.

أما وقد اتضحت أمامنا الصورة جلية عن الحركة العلمية التي شملت ربوع هذا البلد الأمين فكانت شاحخة في أسسها عالية في مناهجها وبرامجها، سامية في أهدافها حيث خلفت لنا تراثا هاما تحفل به الخزانات العامة والخاصة، أما وقد اتضح ذلك، فقد آن الأوان للشروع في المقصود وهو الحديث عن الإجازات في المغرب. وعندما نتكلم عن المغرب فنحن لا نقصد به المغرب الأقصى بقدر ما نقصد به المغرب العربي بإصطلاح أيامنا زيادة على الأندلس، فنقول ومن الله نستمد العون والسداد.

1) تاريخ الاجازة بالمغرب :

اعتبر المحدثون الاجازة منذ القديم أمرا ضروريا لرواية الحديث لكونها لا تتم إلا بها وإلا كانت ناقصة لا محالة لأنها كتابة أهل العلم بالعلم إلى البلدان.

ولذلك كانوا يبذلون النفس والنفيس ويرحلون إلى الأقطار والبلدان ويلازمون الشيوخ والمحدثين من أجل الحصول عليها ونيلها رغبة في وصل سندهم بشيوخهم إلى رسول الله ﷺ وحفاظا على ذلك السند واستمراره.

وقد ظلت الاجازة في العصور الأولى للإسلام بمثابة تصريح بالصلاحيات للمهنة العلمية والوظيفة كالتدريس والفتيا والقضاء، وكانت عنوانا على تخرج الطالب على شيخه وإذنا بالتصدر للتدريس وتعليم الناس أو للتعين في الوظائف العامة. فهي أشبه بالشهادات العلمية الحديثة شهادات التخرج والدخول في الحياة العملية. وقد سجل ابن رحمون هذه الظاهرة بقوله في الدر والعقيان :

«كان من سنة علماء الحديث طلب الاجازة في القديم والحديث حرصا على بقاء الاسناد ومحافظة على الشريعة الغراء وهي التي نسيت في مغربنا بهذه الأعصر واكتفى أهله عن البسط بالحصر وأهملوا السند والاجازة، وحسبوا أن العلم بمجرد التدريس والحياة(4)».

لذلك كان المحدثون المغاربة يعتبرون الرواية ضرورية للنقل كما يؤيد ذلك الحافظ

العراقي بقوله : «نقل الانسان ما ليس له به رواية غير سائغ بإجماع أهل الدراية»⁽⁵⁾. وكان المغاربة يرون في الاجازة اتصالا لسندهم بين من يروون عنه الحديث ويأخذون منه العلم وبين النبي صلى الله عليه وسلم لكون ذلك معدودا من شرف الكرامات لأنه يوصل الراوي بواسطة سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويقربه منه وكلما كان رجال السند أقل، كلما كان السند عاليا ويكون الراوي أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى قرنه الشريف، فتحصل له حصة من الخيرية.

ولهذا ثابر علماء الحديث وطلابه في القديم والحديث على طلب الاجازة ورحلوا من أوطانهم إلى أقطار الدنيا للأخذ عن علماء الحديث وخصوصا إذا كان سندهم عليا وطالما رحلوا إلى بلاد بعيدة لأخذ الحديث. وتلك كانت سنة علمائنا في المغرب منذ قديم العهود يرحلون إلى العلماء في شتى البلدان ويلازمونهم، وكثيرا ما كانت رحلة الحج طريقا للحصول على الاجازة لكونهم كانوا يرونها رابطة جامعة ووصلة للجانبيين نافعة⁽⁶⁾ كما هو الشأن بالنسبة للقاضي عياض مثلا فقد عاد من المشرق وهو يحمل إجازات الطرطوشي والغزالي.

إجازات أولى عند المغاربة :

يقول الكتاني : ومن عيون ما عثرنا عليه من أوائل الاجازات إجازة الامام الصدفي لصهره ابن سعادة، وهي مسجلة على وجه الخمس الثاني من نسخة الجامع الصحيح التي كتبها ابن سعادة وقرأها على الامام أكثر من ستين مرة، وترجع أهميتها إلى أنها تتضمن سنده إلى الجامع الصحيح وترجع إلى سنة 473 هـ.

قال : «قرأ علي جميع هذا السفر صاحبه الفقيه الفاضل أبو عمران موسى بن سعادة أكرمه الله. أخبرته أني سمعت جميع الكتاب على القاضي أبي الوليد سليمان بن أحمد الهروي عن شيوخه الثلاثة أبي محمد وأبي إسحاق وأبي الهيثم جميعا عن أبي عبد الله الفربري عن أبي عبد الله البخاري رضي الله عنهم جميعهم وكتب محمد الصدفي بخطه في شهر ربيع الأول من سنة 473 هـ»⁽⁷⁾.

ومن أوائل الاجازات في هذا الباب ما عثرنا عليه في خزانة الجامع الأعظم بتازة

(5) نفس المرجع السابق والصفحة.

(6) البطاوري ص 26.

(7) مدرسة الامام البخاري ج 1/148.

الجزء الأول من جامع الترمذي على أوله بخط الحافظ الصدي إجازة له للفقهاء الأئمة بن الفضل مبارك مولى إبراهيم بن عيسى الأنصاري، قال بعد سماعه له عليه للصحيح : وهي في جمادى الأولى من سنة 506 هـ (8).

ومن هذا القبيل إجازة الإمام الصدي للقاضي عياض وهي مكتوبة بخط المجني على أصل البخاري له (9).

ومن أوائل الإجازات أيضا إجازة الشيخ الراوية أبو محمد بن عتاب للقاضي عياض فيما كتبه له بخطه قال : «ولما رأيت ما هو عليه الفقيه أبو الفضل والخير والديانة والفهم والعلم وأخذه من كل العلوم بأوفر نصيب أجزت له جميع ما رويته» (10).

وإجازة أخرى للقاضي عياض بخط الراوية أبي بحر سليمان بن العاص يقول في أثناء إجازته له : «وكان — يتولى الله رعايته من البر والنبل والذكاء بحيث يتلقى بالأسعاف مما يسأل» (11).

وهذه إجازة ثالثة له بخط أبي الحسين بن السراج يقول فيها : «وأبحت له — وفقه الله — أن يجيز لكل ذلك عني لما بلوته بجودة حفظه لما يحمل وثقته فيما يأتي وينقل ورأيت أهلا لأداء هذا كله ونشره وروايته عني وذكره» (12).

ومن عيون الإجازات المغربية إجازة الكمال أبي البركات بن أبي زيد المكناسي للحافظ ابن حجر العسقلاني مكتوبة بحديث المصافحة، قال في الإصابة : أخبرنا الكمال بن أبي البركات بن أبي زيد المكناسي إجازة مكتوبة قال : «صافحني والذي وقد عاش مائة سنة، قال : صافحني الشيخ أبو الحسن علي الخطاب بمدينة تونس وعاش مائة وثلاثين سنة قال : «صافحني أبو عبد الله المعمر وكان عمره 40 سنة، قال صافحني رسول الله ﷺ ودعا لي وقال عمرك الله يا معمر» (13). ومنها إجازة ابن غازي (ت 919 هـ) لولديه وللونشريسي وغيرهم بفهرسته وهي مطلقة عامة مسجلة بخط يده على ظهر فهرسته ونصها :

(8) فهرس الفهارس ج 100/2 و 111.

(9) نفس المرجع السابق ص 112.

(10) التعريف بالقاضي عياض لولده محمد، ص 107.

(11) نفس المرجع السابق والصفحة.

(12) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(13) الإصابة قسم 4 من ج 3 ترجمة لمعمر وانظر الاتحاف ج 118/3 و 119 وانظر معجم المحدثين ص 10.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

«أجزت لولدي أحمد وللفقيه أبي محمد عبد الواحد العالم المطلق أبي جعفر أحمد بن يحيى الونشريسي وللفقيه أبي الحسن علي بن موسى بن هارون الطغري وللفقهاء الإخوة الجلة أبي عبد الله محمد وأبي زيد عبد الرحمن وأبي العباس أحمد وأبي القاسم أولاد الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي وللفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد العدالي جميع ما اشتملت عليه فهرستي هذه وذيلها إجازة تامة بشروطها وقاله وكتبه العبد الفقير المستغفر محمد بن أحمد بن غازي العثاني سمح الله تعالى له بمنه والحمد لله وكفى، والسلام على عباده الذين اصطفى»⁽¹⁴⁾.

ومنها إجازة شيخ الجماعة التاودي بن سودة المتوفى سنة 1209 هـ للحافظ الزبيدي التي قال غنها في الفية السند له :

ومنهم محمد بن الطالب	التاودي العدل ذو المواهب
رئيس فاس كاشف الغيوم	وعالم المنطوق والمفهوم
إليه في بلاده يشار	عليه في المعارف المدار
صحبته في مصر في وفادته	فجاء بالكثير من إفادته
أجازني لكل ما يرويه	من كل ما يفيد أو عليه ⁽¹⁵⁾

وإذا أردنا أن نستقصي عيون الاجازات وأنواعها أو أشكالها فلا شك أن المجال يطول وخاصة ونحن نعلم دأب علمائنا في المغرب على هذه العادة الحميدة وكذلك تدبيجهم مع علماء المشرق ورحلاتهم شرقا وغربا.

اعتناء المغاربة بالاجازات وتحفظهم في جانبها :

لقد رحل المغاربة طلبا للعلم واختلطت الأسانيد المغربية بالأسانيد المشرقية وظهرت بعض الأسانيد العالية في المغرب فتهاقت عليها العلماء والملوك وكتبوا أصحابها طلبا للاجازة ونحن إذا تصفحنا كتب الفهارس والمعاجم والأثبات المغربية نجد حقا إن المغاربة كانوا يعتنون بالاجازة حق العناية وهذه الكتب مليئة بالشروط والتحفظات التي يذكرها العلماء بصدد إجازة بعضهم لبعض، الأمر الذي يبين أن لها مركزا مهما وأنها لا تعطى إلا من طرف أهلها لأهلها.

فهذا الأستاذ الشيخ المقرئ الرباطي في إجازة له لمحمد بن خليفة يقول ما نصه :
«ولا يخفى عليك أيها المحب ما عليه أهل الوقت من الاقدام على قراءة الحديث من

(14) فهرس ابن غازي ص 66.

(15) مدرسة الامام البخاري ج 1 ص 115.

غير تحصيل لأدواته ولا أخذ عن أهله وبعضهم يعتمد على إجازة شيخه مع أن الاعتماد على إجازة الشيوخ مجردة عن تحصيل مالا مندوحة عنه من الأدوات ومعرفة مصطلح أهل هذا الشأن اغترار وجهالة، لتعليق المحيزين ذلك على الشرط المعتبر عند أهل الحديث والأثر، وبالضرورة انتفاء المشروط بانتفاء شرطه، فينبغي لمن أوتي الحكمة أن يكون ضنيها بها عن غير أهلها وفي كلام سفيان الثوري والإمام الشافعي والغزالي إرشاد لهذا المعنى وله من الشهرة ما أغنى وكفى»⁽¹⁶⁾.

وصايا المغاربة في إجازاتهم :

إن وصايا المغاربة في إجازاتهم لا تختلف عن وصايا المشاركة في كثير فهم يوصون المستجيز — بعد أخذ الشروط عليه — بتقوى الله والدعاء الصالح ونشر العلم وما شابه ذلك، ونأخذ كمثال على ذلك إجازة محمد السباعي للشيخ عبد الحفيظ الفاسي، جاء فيها :

«وأوصي المستجيز بأخذ العلم بزمامه وخطامه ولجامه الذي هو التقوى وحفظ اللسان وسلامة الصدر والتسليم وعدم الرضى عن النفس، إذ لا تحصل ثمرة العلم إلا بذلك. وأوصيه وإياي بما أوصى به الله الأولين والآخرين. قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْصَيْنَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ فالله يوفقنا جميعا لما يحب ويرضاه»⁽¹⁷⁾.

ويقول بعضهم ناظما وصيته مع الاجازة :

يا الله يا آخذا عني إجازة ما	أروي من الكتب في شتى الاجازات
سل لي خواتم أعمالك تيسر لي	إجازة الحشر في يوم المجازات

(2) أقسام الإجازات في المغرب :

تنوعت الاجازة في المغرب إلى أنواع وأقسام : علمية، تقديرية، تكميمية، عامة.

أ — الاجازات العلمية :

إذا كان علماؤنا ورجال الحديث يمنحون الاجازات العامة والتكميمية بدون التقيد بشروط، فإنهم كانوا ضنينين متشددين فيما يتعلق بالاجازات العلمية وهي التي لا تعطى إلا بعد طول ملازمة للشيخ والأخذ عنه والتمرس به، حتى إذا أنس الشيخ من طالبه التمكن في مادته والاحاطة بما أخذ عنه أجازة تكون إذنا له في الرواية عنه

(16) معجم الشيوخ المسمى بهاض الجنة، عبد الحفيظ الفاسي ج 1 ص 94.

(17) نفس المرجع ج 1 ص 142.

والدخول إلى ميدان التدريس وممارسة الفتوى والقضاء ونحوها. (18). وهذه الشهادة تشبه الامتحان الذي يجتازه الطالب للحصول على شهادته العلمية اليوم. وكان لابد من توفر الطالب على شروط وأن يمر بمراحل قبل الحصول من شيخه على الاجازة. فمثلا على المرشح للاجازة في القرآن الكريم أن يعرف الروايات السبع كلها وأن يتقن القرآن إتقاناً تاماً على النحو التالي. (19).

أن يمر على سائر آي القرآن ويحفظها كما يحفظ الفاتحة وعليه أن يكون على خبرة تامة بجميع الفنون التي يتوقف عليها الحفظ من رسم وضبط وتلاوة. ولا يمكن أن يتقدم لأول وهلة عند الأستاذ الكبير بل عليه أن ينال رضى أستاذ أقل رتبة إذ لا يصل إلى الاجازة إلا بالتدرج حتى إذا وصل إلى الشيخ المجيز — ولابد أن يكون أعلم أهل وقته في هذا الشأن وأكملهم — أمره بكتابة حصّة من القرآن من حفظه ثم رسمها على شكل المصحف وضبطها. فإذا تم ذلك كله شرع الشيخ في توجيه أسئلة إلى الطالب الذي يكون لزاماً عليه أن يستحضر سائر النصوص في الموضوع فإذا نال رضى الشيخ انتقل إلى أستاذ آخر يتولى سؤاله بكيفية أكثر عمقا في مختلف وجوه الرسم والضبط وسائر الحروف. فإذا نجح في ذلك أمره بالاعراب فما كان على الأصل أقره وإلا، نبه عليه وهكذا يمتحنه في سائر علوم القرآن الكريم، فإذا ظهر له إمامه ورضي عنه أمر بكتابة الاجازة له رافعا له فيها سنده ويشهد على نفسه في الوثيقة أنه أجازه ويضع القاضي خط يده معلما بثبوت الاجازة من الشيخ فلان إلى الأستاذ فلان الذي درس عليه الكتاب الفلاني لمؤلفه فلان الذي تلقاه بدوره عن شيخه فلان. ومن نماذج الاجازات العلمية بالمغرب إجازة الشيخ الفقيه أبي الحسن علي بن هارون المطعري الفاسي لتلميذه أبي عبد الله محمد بن العربي بن القاضي وهي مؤرخة في جمادى الثانية سنة 934 هـ، وإجازة أبي العباس المقرئ لتلميذه إبراهيم بن يوسف السجستاني وقد أوردها يوسف الكتاني في كتابه نقلا عن جامع القرويين (20).

ب — الاجازات التقديرية :

يقصد بها ذلك النوع من الاجازات التي يتبادلها العلماء والمحدثون فيما بينهم تأكيداً لرابطة العلم والرواية وتقديراً من بعضهم لبعض، وذلك كإجازة العالم للعالم

(18) مدرسة الامام البخاري ج 1 ص 152.

(19) جامع القرويين ج 1 ص 432.

(20) التعريف بالقاضي عياض لولده ص 107.

بفهرسته أو بكتابه أونحوهما. وهذا النوع جار بين العلماء المحدثين منذ القديم عندما يرحلون من بلد إلى بلد أو للحج يميز بعضهم بعضا تقديرا وتكريما. من ذلك إجازة الشيخ ابن عتاب للقاضي عياض وقد كتبها بخط يده تقديرا وتكريما للعلم وقد جاء فيها : «لما رأيت ما هو عليه أبو الفضل المذكور حفظه الله من الفضل والخير والديانة والفهم والعلم وأجده من كل العلوم بأوفر نصيب أجزت له جميع ما رويته»⁽²¹⁾.

كما أجاز له أيضا سفيان بن العاصي وأبو الحسن بن السراج فهذه ثلاث إجازات من ثلاثة شيوخ للقاضي عياض تقديرا لعلمه وكفاءته وفضله. وغالبا ما يكون موضوع هذه الإجازات التقديرية بين العلماء والشيوخ سند الشيخ المجيز في الصحيح أو في الكتب الستة أو في ورد من الأوراد أو علم من العلوم حتى يضيفه المجاز إلى هذه عن طريق المجيز لعلوه وفضله خاصة ونجد من هذا القبيل إجازة الامام محمد بن قاسم القصار للشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي⁽²²⁾ وإجازة الشيخ محمد بن المرباط الدلائي للشيخ الحسن اليوسي⁽²³⁾ ومن عيون ما يوجد من إجازات تقديرية إجازة نظمية بين عالمن جليلين أحدهما مغربي والثاني مشرقى وهي إجازة أبي سالم بن محمد العياشي للملا ابراهيم الكوراني وصلا لسند المغرب بسند المشرق حيث أجاز له بحديث الأولية وبمؤلفاته وهي نموذج للتقدير القائم بين العلماء والتواضع الكبير الذي كانوا يتصفون به، وما جاء فيها :

أجزتك لكن مثلك من يجيزني	ولم يستفد مني ولكن تفيدني
بما قد سمعت من شيوخى قراءة	من الشيخ أو منى وهم يسمعوننى
وكل الذي أرويه مما أجازنى	وناولنى من الرواية يعتنى
وما صح أنى قد رويت لديكم	فاخبر به عنى وحدث وعنمن ⁽²⁴⁾

ج - الاجازات العامة :

هذا النوع لا علاقة له بما سبقه من أنواع الاجازات إذ لم يكن العلماء والمحدثون يتشددون فيه ولا يشترطون توفر طالبه على شرط لأن المقصود به وصل الاسناد وتعميم الرواية.

(21) المرجع السابق.

(22) انظر مدرسة الامام البخاري ج 1/158 ونص للإجازة في ملاحق الرواية الدلائية للدكتور محمد حجي.

(23) انظر نفس المرجع السابق ص 159.

(24) الرحلة العياشية ص 330 - 382.

ومن شأن هذه الاجازات أنها لا تعطي لطالبها أي اعتبار أو إذن في الرواية عن المجيز أو تعاطي التدريس أو الوظائف العامة مثل الفتيا والقضاء كما هو الشأن في الاجازات العلمية. ولذلك كان الناس يطلبون هذه الاجازات العامة ويقبلون عليها كما كان العلماء يحققون رغبة أصحابها بقصد وصل السند والتبرك برواية الحديث أو أي علم يجاز فيه لتكون الاجازة عنوانا على صلة المجاز بالمجيز تقريبا من رسول الله ﷺ وحبا في سنته مما يرفع عن هذه الاجازة كل اعتبار علمي عدا التبرك وتسجيل الاتصال بالشيخ والسماع منه.

وكما كانت هذه الاجازات العامة تعطي للأفراد، تعطي كذلك للجماعات فقد كان رواية فاس ومسندها أحمد بن القاضي المتوفى سنة 1025 هـ إذا قرأ الصحيح يجيز الحاضرين آخر كل مجلس لتحصل الرواية ولو لمن سمع حديثا واحدا⁽²⁵⁾.

د - إجازات النساء للرجال :

إن المرأة المسلمة بالمغرب إلى جانب شقيقها الرجل أبانت عن علو شأنها وتبريزها وطول باعها في الحفظ والرواية وما بلغته من الإتقان والدراية حتى وجدنا علماء ومحدثين يسعون إلى استجازة النساء العالمات والأخذ عنهن. ونكتفي بذكر عالميتين جليلتين في هذا الميدان وهما الفقيهتان الكبيرتان مباركة وزين الشرف اللتان أجازتا أحد أعلام المغرب وحفاظه وهو أبو عبد الله محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي فقد أجازته بالحديث المسلسل بالأولية وبسورة الفاتحة وكان سماعه عليهما وإجازتهما له مؤرخة في 20 ذي الحجة عام 1079 هـ⁽²⁶⁾.

وقد علق ولده على هذه الاجازة قائلا : «فما رأيت والدي سر بإجازة عالم قط ماسر بإجازة هاتين الشيختين...»⁽²⁷⁾.

هـ - الاجازات التكرمية :

وهي التي يمنحها العلماء والشيوخ للملوك والأمراء إما باستدعاء منهم أو بمناسبة الاتصال بهم ومقابلتهم، وهذا النوع من الاجازات يدل على مدى اعتزاز ملوك المغرب من قديم وإجلالهم للمحدثين والعلماء وسعيهم للاتصال بهم وربط الأواصر معهم نشرًا للعلم وإشاعة للرواية وحفظ الحديث.

(25) فهرس الفهارس ج 1/71.

(26) نفس المرجع السابق ص 218.

(27) مدرسة الإمام البخاري ج 1 ص 169.

وقد دأب ملوك وأمراء المغرب على طلب الاجازة من العلماء والشيوخ مباشرة أو عن طريق المكتابة كما حرص المحدثون والعلماء منذ القدم على تكريمهم بإجازتهم هم وجميع رعيتهم وأهل عصرهم.

ويقوم مقام هذه الاجازات التكرمية ما تمنحه الجامعات اليوم من الدكتوراه الفخرية بمناسبة زيارة الملوك والرؤساء لها. وما منحه العلماء من مشاركة ومغاربة للملوك المغرب نذكر مايلي :

إن ابن العربي حمل معه لأمير المؤمنين يوسف بن تاشفين إجازة من الامام الغزالي وأخرى من الطرطوشي استجابة لاستدعاء أمير المؤمنين وتحقيقاً لرغبته⁽²⁸⁾. ومنها أيضاً الاستدعاءان للذان وجههما السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى الامام القرافي والشيخ أبي الحسن البكري لإجازته فأسرعا إلى تلبية طلبه وتحقيق رغبته وكتبوا له إجازتين نفيستين.

ومن هذا القبيل أيضاً الفهرس الذي وضعه أحمد بن أبي الحسن المنجور المتوفى سنة 995 هـ باسم السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي وصرح له بالاجازة العامة. وفهرست الزباني الذي أجاز به السلطان أبو الربيع المولى سليمان العلوي سماه «جوهرة التيجان وفهرست الياقوت والمرجان من الملوك العلويين وأشياخ مولانا سليمان»⁽²⁹⁾.

وإجازة عبد الحي الكتاني للسلطان المولى عبد الحفيظ عندما كان خليفة بمراكش وذلك بفهرس سماه : «المنهج المنتخب المستحسن فيما أسندناه لسعادة مولاي عبد الحفيظ بن السلطان مولاي الحسن».

و - التدييج :

جرت عادة العلماء من قديم على تبادل الاجازات فيما بينهم وأن يروي بعضهم عن بعض سعياً لتأكيد الصلات وطلباً للعلو في السند وتحملاً لما عند بعضهم من علم وحديث. فإذا التقى عالمان طلب أحدهما من الآخر إجازته والرواية عنه، ولبي الحميز رغبته وطلب إليه بدوره إجازته وهذا ما يعرف بالتدييج في مصطلح الحديث⁽³⁰⁾.

(28) فهرس الفهارس ج 1/230.

(29) جامع القرويين ج 1/125.

(30) التقييد والإيضاح على مقدمة ابن صلاح ص 186.

وقد اعتبره الشيخ عبد الحى الكتاني مظهرا من مظاهر ارتباط علماء المغرب بعلماء المشرق حيث قال : «وهذا التدبير مظهر ارتباط أسانيد المغاربة بالمشاركة وتعويل الآخرين على الأولين في ميدان المكافحة والمسابقة وتصدير المشاركة عند روايتهم بأئمة المغرب وتناول أعلام المغرب واقتخارهم بالأخذ عن فصاحة المشرق»⁽³¹⁾.

ومن تدبج من المغاربة بالمشاركة محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842 هـ مع الحافظ بن حجر وأبو سالم العياشي مع شيخه المولى ابراهيم الكوراني، والشيخ التاودي بن سودة مع الشيخ المعمر الصالح الرحال محمد المختار بن محمد أمزيان المعطاوي وغيرهم⁽³²⁾.

(3) جمع الاجازات :

دأب العلماء المحدثون على جمع إجازاتهم التي حصلوا عليها من شيوخهم وقد يضيفون إليها إجازات مشايخ من أجازوهم، واستمر العلماء المحدثون على هذه السنة خلفا عن سلف مما يشهد به ما تزخر به الخزائن العامة والخاصة في المغرب من أسفار وأثبات وفهارس وبرامج ورحلات تضم الاجازات التي حصلوا عليها طوال حياتهم. نذكر منها على سبيل المثال :

(1) «اتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء» لمحمد بن أبي بكر العياشي المغربي المتوفى 1090 هـ.

(2) «قرى العجلان على إجازة الأحبة الاخوان» لأبي العباس أحمد بن محمد الهشتوكي.

(3) «فتح الملك الناصر في إجازات مرويات بني ناصر» لأبي عبد الله محمد بن أبي عمران موسى بن ناصر الدرعي.

(4) «مجموع إجازات الحضيكي».

(5) «مجموع إجازات بن رخمون» وهو محمد التهامي بن المكي بن عبد السلام.

(6) «مجموع إجازات ابن الخوجة» لشمس الدين محمد بن أحمد بن الخوجة

الحنفي التونسي المتوفى سنة 1263 هـ.

(7) «مجموع إجازات محمد بن جعفر الكتاني المتوفى سنة 1345 هـ.

(31) فهرس الفهارس لعبد الحى الكتاني ج 1/ص 6 وما بعدها.

(32) مدرسة الامام البخاري ج 1/172 - 173.

(8) «بركة الدنيا والأخرى في الاجازة الكبرى» لوحيد الدين عبد الرحمن بن سليمان الأهدل الزبيدي.

(4) اشتهار المغاربة بالاجازات القرآنية :

لقد كان المغاربة بشهادة فطاحل كبار العلماء أحفظ الناس للقرآن الكريم وأضبطهم لقراءته وأحكامه منذ القديم حيث فاقت العناية به ما سواها من علوم. فبينما كان يكفي غيرهم بقراءة كتاب الله تعالى على رواية واحدة وحرف واحد تراهم لا يعدون حافظا لكتاب الله من لا يقرأ بالسبع أو بالعشر. وانتشرت المدارس القرآنية المتخصصة في السهول والجبال وكان الطلبة يفتخرون بالاتقان والحفظ على أقرانهم. ونحن إذا تصفحنا الاجازات المغربية نجد أن الاجازات القرآنية تحتل مركزا مهما من بينها، فهذه الاجازات بمثابة شهادات بحفظ القرآن الكريم وإجادة رسمه وآدابه وتعرف ببعض الجوانب التعليمية لكل من المجيز والمجاز، كما تعرف بأسانيدهما القرآنية إضافة إلى توضيح طريقة مغرب الأمس في الامتحانات الأولية وفي أسلوب كتابة شهادة حفظ القرآن العزيز⁽³³⁾.

وأسلوب هذه الاجازات يأتي على الشكل التالي :

فبعد الافتتاحية المطولة يحدد الأستاذ اسمه واسم التلميذ المجاز ثم يذكر أن التلميذ عرض عليه القرآن الكريم بقراءة نافع أو في قراءات الأئمة السبعة وعرض عليه أيضا المتون الدراسية المشار إليها. فيشهد المعلم بعد ذلك بأن الممتحن أدى ذلك على وجه المطلوب ويعقب بذكر إجازته فيما استظهره بين يديه، ويتوسع في ذكر أسانيده للقرآن الكريم والمعروضات الأخرى. وإثر تاريخ الاجازة يأتي توقيع الأستاذ فيزكي إمضائه الحاضرون من العلماء والأشراف بتوقيعاتهم كذلك وأخيرا قاضي البلد بإمضائه أيضا⁽³⁴⁾.

ولزيد من الاهتمام تكتب الشهادة على الورق في صفحة كبيرة في طولها وعرضها من حجم 70/60 سم تقريبا بخط مغربي مريح شبيه بالأندلسي مجدول ومزخرف الطالع مع تحلية ذلك بمحلول الذهب والألوان المتناسبة ونظرا لدقة خط الكتابة فإن الشهادة الواحدة تخرج في نحو عشر صفحات عادية⁽³⁵⁾.

(33) المصادر العربية لتاريخ المغرب ص 123.

(34) نفس المرجع والصفحة.

(35) نفس المرجع السابق ص 124.

5) نماذج من الاجازات القرآنية بالمغرب :

* في العصر الوطاسي :

— إجازة محمد بن عبد الله الفخار الصماقي لتلميذه أبي سالم ابراهيم بن أبي الفرج ابن علي الشريف العباسي عام 803 هـ.

— إجازة محمد بن يحيى بن محمد بن جابر الغساني المكناسي لتلميذه عبد الرحمن ابن علي بن محمد المعافري الوقاد المكناسي عام 813 هـ.

— إجازة أبي الحسن علي بن موسى بن هارون المطغري ثم الفاسي لمحمد بن علي ابن القاضي.

* في العصر السعدي :

— إجازة ابن مجبر محمد بن أحمد بن عبد الرحمان المساري ثم الفاسي، المتوفى عام 985 هـ/1577 م لأبي موسى بن عيسى بن ابراهيم بن عمر الزياتي اللجائي 956 هـ.

— إجازة أبي علي الهداجي الحسني بن محمد بن عبد الله الدرعي المتوفى عام 1006 هـ لقاسم بن أحمد بن علي ابن أبي بكر الزموري الفاسي بتاريخ 1004 هـ. أجاز بها أحمد بن محمد بن أحمد بن علي الزموري الفاسي.

— إجازة البوعناني محمد بن محمد بن سليمان الحسني الادريسي الفاسي المتوفى عام 1063 هـ أجاز بها المدعو الشرقي بن محمد بن أبي بكر المجاطي الدلاي بتاريخ 1038 هـ (36).

6) الاجازات الحديثة بالمغرب :

لم تبلغ العناية بالحديث في المغرب ما بلغته العناية بالقرآن الكريم حفظا وقراءة وضبطا، وبالتالي كانت الاجازة بالقرآن أكثر تثبتا واحتياطا منها في الحديث، واكتفى علماء المغرب في الاجازات الحديثة على ما درسه الطالب عليهم من بعض الكتب وتأكدت لهم به سلامة نطقه وصحة إدراكه ليجيزوا له الكتاب كله أو جملة الصحاح والسنن وما إلى ذلك. وربما كان مرد ذلك إلى طول كتب الحديث وتعددتها أو إلى الرغبة في نشر السند والتشجيع على الإقبال على الحديث، وأكثر إجازات

(36) اعتمدنا في نقل هذه الاجازات على كتاب المصادر المكتوبة لتاريخ المغرب للأستاذ محمد التوني.

المغاربة الحديثية في عهودهم شرقية حصلوا عليها بالرحلة لدرس العلم أو للحج أو مكاتبة لأصحابها. وشيوخ الحديث في المغرب كثيرون بدءاً بالأصيلي والقاضي عياض وانتهاءً بأبي شعيب الدكالي والعائلة الكتانية الشريفة. وفيما يلي بعض الاجازات الحديثية المغربية :

(1) إجازة عبد الرحمن سقين في أوائل عام 955 هـ / 1548 م بمدينة فاس لأحمد المنجور فيما قرأ عليه أو سمعه منه أو حدث به من الموطأ وصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي⁽³⁷⁾.

(2) إجازة إمام الدين الخليلي، 999 هـ / 1590 م بمراكش لأحمد بن القاضي بجميع مصنفات الحديث التي يروها عن شيوخه المشاركة العرب والعجم، وذكر فيها أسانيد في الحديث ومن أخذ عنهم وأجازوه من محدثي القدس ومصر والحرمين الشريفين وحمص وحماة وأنطاكية وطرابلس الشام والقسطنطينية ثم طرابلس الغرب وتونس والجزائر وهي تعتبر موسوعة للحديث في القرن العاشر⁽³⁸⁾.

(3) إجازة محمد القصار 1012 هـ / 1603 م بفاس لمحمد بن أبي بكر الدلائي فيما سمعه منه من الصحيحين والشافا وغيرها من الكتب الستة التي يروها — بواسطة — عن الامام عبد الرحمن سقين بسنديه المغربي والمشرقي⁽³⁹⁾.

(37) الحركة الفكية في المغرب في عهد السعديين ص 104.

(38) نفس المرجع والصفحة.

(39) نفس المرجع والصفحة.